لزوم المروءة

المروءة هي السمت الحسن في أبهى حلة وأجمل صورة فهي مبدأ صدور الأفعال الجميلة التي تزين المرء وتجعله مهيبًا في العيون محبوبًا في القلوب وقورًا في الأسماع، والمروءة كما عرفها الكفوي: «هي الرَّجُولِيَّة الكامِلَةُ»[١].

وعرفها الجرجاني ـ رحمه الله ـ فقال: «هي قُوَّة للنَّفْسِ مبدأٌ لصدور الأفعال الجميلة عنها، المستتبعة للمدح شرعًا وعقلاً وعرفًا»[٢].

ولكل شيء مروءة؛ فمروءة اللسان: حلاوته وطيبه ولينه، ومروءة الخلق: سعته وبسطه للحبيب والبغيض، ومروءة المال: الإصابة ببذله مواقِعَهُ المحمودة عقلاً وعرفًا وشرعًا، ومروءة الجاه: بذله للمحتاج إليه، ومروءة

(١) «الكليات» للكندي (ص٧٨٤).
(٢) «التعريفات» للجرجاني (ص٢١٠).

الإحسان والبذل: تعجيله وتيسيره وتوفيره وعدم رؤيته حال وقوعه، ونسيانه بعد وقوعه[١].

ومن اجتمعت فيه خصال المروءة فهو في الناس شبه الملك.

ومن طريف ما يذكر في ترجمة محمد بن عمرو بن عطاء الأكبر أن الناس كانوا يتحدثون بالمدينة أن الخلافة تفضي إليه لهيئته ومروءته وعقله وكماله، ونَعَتَهُ ابن سعد بقوله: «وكانت له هيئة ومروءة»[٢].

فمن أحب أن يلبس التاج المفقود فعليه إقامة المروءة فإن حسن السمت داخل فيها وهي داخلة في حسن السمت، والمروءة لا يتوصل إليه إلا بالمعاناة والتفقد والمراعاة.

فهي كما قال الماوردي ـ رحمه الله ـ: «هي حِلْيَةُ النُّفُوسِ، وزينة الهمم»[٣].

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٦٨). (٢) «طبقات ابن سعد» (ص١٢٣).
(٣) «أدب الدنيا والدين» (ص٣٠٦).

وخيرها كما قال ابن سلام: «حد المروءة رعي مساعي البر، ورفع دواعي الضُّر، والطهارة من جميع الأدناس، والتخلُّص من عوارض الالتباس حتى لا يتعلق بحاملها لوم، ولا يلحق به ذم، وما من شيء يحمل على صلاح الدين والدنيا ويبعث على شرف الممات والمحيا؛ إلا وهو داخل تحت المروءة»[١].

وأول صلاح المروءة تفقد الرجل الأمور المستحقرة في نفسه ليجتنبها.

قال ابن حبان ـ رحمه الله ـ: «الواجب على العاقل تفقُّدُ الأسباب المستحقرة عند العوام من نفسه حتى لا يَثْلِم[٢] مُروءَتَهُ، فإنَّ المحقرات ضد المروءات تُؤدي الكامل في الحال بالرجوع القَهْقَرَى إلى مراتب العوام وأوباش[٣] الناس»[٤].

---

(١) «عين الأدب والسياسة» (ص٣٠).
(٢) يثلم: من الثلم وهو الخلق.
(٣) أوباش الناس: أخلاطهم وسفلهم.
(٤) «روضة العقلاء» (ص٢٣٣).

وذو المروءة يكرم أينما حل وارتحل فهو من القلوب بالمحل، ومن الحكم السائرة التي تداولها الكرام كابراً عن كابر: «ذو المروءة يكرم وإن كان معدمًا؛ كالأسد يهاب وإن كان رابضًا، ومن لا مروءة له يهان وإن كان موسرًا؛ كالكلب يهان وإن طَوَّق وحُلِّي بالذهب».

فدونك المروءة؛ عض عليها بالنواجذ ولو لم يبق في الفم ناب فإنك أنت الرابح ما من ذلك بد.

الفطنة

من رام السمت الحسن فعليه أن يكون فطنًا حذقًا فهمًا فقهًا[١].

وتعرف الفطنة بأنها: تَهَيُّؤُ النفس لتصور ما يرد عليها من الغير وهي ضد الغباوة.

قال الراعي:

إذا فَاطَنَتْنا فِي الحديث تَهَزْهَزَتْ
إليها قُلُوبٌ، دونَهُنَّ الجوانِحُ[٢]

وهي موهبة من الله ـ سبحانه وتعالى ـ قال الأَبْشِيهِيُّ: «قد يخصُّ الله ـ تعالى ـ بِألطافه الخفية من يشاء من عباده،

---

(١) قال الكفوي في «الكليات» (ص٦٧) ـ ضمن حديثه عن مراتب وصول العلم إلى النفس ـ: «الفهم: هو التعلق غالبًا بلفظ من مخاطبك، والفقه: هو العلم بغرض المخاطب من خطابه، والفطنة: هي التنبُّه للشيء الذي يُقصدُ معرفتُهُ».

(٢) انظر «لسان العرب» (١٣/ ٣٢٣)، و«المصباح المنير» (٢/ ١٣٣)، و«الصحاح» (٦/ ٧٧/ ٢١)، و«مقاييس اللغة» لابن فارس (٤/ ٥١١).

فيفيض عليه من خزائن مواهبه رَزَانَة عقلٍ، وزيادة معرفة، تُخْرِجُهُ عن حَدِّ الاكتساب، ويصير بها راجحًا على ذوي التجارب والآداب».

وقد كان النبي ﷺ يحدث أصحابه بأحاديث تحتاج إلى الفطنة من بعضهم، وذلك منه ﷺ مراعاة للحال والمقام؛ فعن أبي سعيد رضي الله عنه أن رجلاً دخل المسجد يَوْمَ الجمعة، ورسول الله ﷺ يَخْطُبُ فقال: «صلِّ ركعتين»، ثم جاء الجمعة الثانية والنبي ﷺ يخطب فقال: «صل ركعتين»، ثم جاء الجمعة الثالثة، فقال: «صلِّ ركعتين»، ثم قال: «تَصدَّقوا»، فَتَصدَّقوا فأعطاه ثَوْبَيْنِ، ثُمَّ قال: «تَصدَّقُوا»، فطرح أحد ثَوْبَيْه، فقال رسول الله ﷺ: «أَلَمْ تروا إلى هَذا إِنَّهُ دَخَلَ المَسْجِدَ بِهَيْئَةٍ بَذَّةٍ، فرجوتُ ان تَفْطُنُوا لَهُ فتَتَصَدَّقُوا عَلَيْهِ، فَلَمْ تَفْعَلُوا فَقُلْتُ: تَصَدَّقُوا فَتَصَدَّقْتُمْ»[1].

---

(١) حسن: أخرجه النسائي (٥/ ٦٣) واللفظ له، وأبو داود (١٦٧٥)، وحسنه الألباني في «صحيح أبي داود» (١٤٦٩).

وعن عائشة رضي الله عنها أن امرأة من الأنصار قالت للنبي ﷺ: «كيف أغتسل من المحيض؟»، قال: «خُذِي فِرْصَةً مُمَسَّكَةً، فَتَوَضَّئِي ثلاثًا».

ثم إن النبي ﷺ استحيا فأعرض بوجهه أو قال: «تَوَضَّئِي بِهَا»، فأخذتها فجذبتها فأخبرتها بما يريد النبي ﷺ»[1].

وكان بعض الصحابة يتفطنون للأمر الذي يريده النبي ﷺ من حديثه؛ فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خطب رسول الله ﷺ الناس، وقال: «إنَّ الله خَيَّرَ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فاخْتَارَ ذَلِكَ العَبْدُ مَا عِنْدَ الله»، قال: فبكى أبو بكر، فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله ﷺ عن عَبْدٍ خُيِّرَ، فكان رسول الله ﷺ هو المُخَيَّرُ، وكان أبو بكر أعْلَمَنَا.

---

(١) رواه البخاري (٣١٥) واللفظ له، ومسلم (٣٣٢).

فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ أمنَّ النَّاسِ عَلَيَّ في صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أبُو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً خليلاً غَيْرَ رَبِّي لاتَّخَذْتُ أبَا بَكْرٍ، ولكِنْ أُخُوَّةُ الإسلام ومَوَدَّتُهُ لا يبقيَنَّ في المَسْجِدِ بَابٌ إلاَّ سُدَّ إلاَّ بَابَ أبِي بَكْرٍ»[1].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ من الشَّجَرِ شَجَرَةً لا يُسْقَطُ وَرَقُهَا، وإنَّها مِثْلُ المُسْلِمِ، فَحَدِّثُونِي مَا هِيَ؟».

فوقع الناس في شجر البوادي، قال عبد الله: ووقع في نفسي أنَّها النخلة، فاستَحْيَيْتُ.

ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول الله؟ قال: فقال: «هِيَ النَّخْلَةُ». قال: فذكرت ذلك لعمر، قال: لأن تكون قلت: هي النخلة، أحبُّ إليَّ من كذا وكذا»[2].

---

(١) رواه البخاري (٣٦٥٤) واللفظ له، ومسلم (٢٣٨٢).
(٣) رواه البخاري (١٨٢٢) واللفظ له، ومسلم (١١٩٦).

وصفوة المقال أن الفطنة هي موهبة من الله ـ سبحانه وتعالى ـ ويمكن اكتسابها بالعلم الشرعي وقراءة كتب السلف، والدربة على افتضاض أبكارها والتنبه للشيء المراد معرفته وفهمه، حتى تصير الفطنة سجية وطبعًا ما من ذلك بد.

على أن فيها من الفوائد والمسار ما لا يدركها إلا الواحد بعد الواحد فمنها أنَّها أمان من البلادة، والسلامة من المواقف الحرجة، وبزوغ نجم السمت الحسن بزوغًا لا خفاء فيه.

الوقــار

من جمع بين الوقار وحسن السـمت كان في الناس شبه الملك؛ فحسن السمت هيئة الملك، والوقار مـوكبه وحاشيته وجنوده التي تحيط به.

والوقار كـما عرفـه الجاحظ: «الوقار هو الإمـساك عن فضول الكلام والعبث، وكثرة الإشارة والحركة فيما يُستغنى عن التحرك فيه، وقلَّة الغضب، والإصغاء عن الاستفهام، والتوقف عن الجواب، والتَّحفُّـظ من التَّسرُّع، والمباكرة في جميع الأمور»[1].

فمـا عليك أن تفرد نفسك بهـذه الخلَّة التي تدنيك من الإخوان وتجعل لك مهابة وقبولاً عند العامة، وتدرك ما لا يدركه غيرك من العزِّ والشَّرف والرئاسة.

(١) «تهذيب الأخلاق» للجاحظ (ص٢٢).

والرسول ﷺ يُحبُّ لأمته التحلِّي بخلق السكينة والوقار حتَّى وهم في طريقهم إلى الصلاة؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة وعليكم السكينة والوقار[1]، ولا تسرعوا فما أدركتم فصلُّوا وما فاتكم فأتموا»[2].

وأخبر أنه ما من نبيٍّ بعثه الله إلاَّ ورعى الغنم؛ وذلك لما يؤول إليه من الرحمة والشفقة واكتساب السكينة والوقار؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الفخر والخيلاءُ في أصحابِ الإبلِ، والسَّكينة والوقارُ في أهل الغنَمِ»[3].

---

(١) قال النووي ـ رحمه الله ـ كما في «الفتح» (٢/ ١٣٩): «والفرق بين السكينة والوقار أنَّ السكينة هي التأني في الحركات واجتناب العبث، والوقار في الهيئة كغض البصر، وحفظ الصوت، وعدم الالتفات».

(٢) رواه البخاري (٦٣٦)، ومسلم (٦٠٢).

(٣) رواه البخاري (٤٣٨٨) واللفظ له، ومسلم (٥٢).

أمور تعين على اكتساب الوقار:

١ ـ العلم والعمل به:

قال الحسن ـ رحمه الله ـ: «قد كان الرجل يطلب العلم فلا يلبث أن يُرَى ذلك في تخشعه، وهديه، ولسانه، وبَصَرِه، وبرِّه»[١].

٢ ـ توقير الله ـ سبحانه وتعالى ـ:

من رام الوقار فعليه بتوقير الله ـ سبحانه وتعالى ـ حق توقيره.

قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ (نوح: ١٣).

ومن لا يوقر الله في كتابه وسنة نبيه بالعلم بها والتأدب بأدبهما؛ فإن الله لا يُلقي له في قُلُوبِ النَّاسِ وَقَارًا ولا هيبة، بل يسقط وقاره وهيبته من قلوبهم.

---

(١) «شعب الإيمان» (٨/ ٤٢٧).

٣ ـ الحياء:

الوقار ثمرة من ثمار الحياء؛ فعن بشير بن كعب قال: «مكتوب في الحكمة: إن من الحياء وقارًا وإن من الحياء سكينة»[(١)].

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ: «معنى كلام بُشير: أن من الحياء ما يحمل صاحبه على الوقار بأن يوقر غيره، ويتوقر في نفسه، ومنه ما يحمله على أن يسكن عن كثير مما يتحرك الناس فيه من الأمور التي لا تليق بذي المروءة»[(٢)].

٤ ـ لزوم الصمت:

لزوم الصمت إلا من حقٍّ توضِّحُهُ، أو باطل تُدْحِضُهُ، أو شيءٍ يَعْنيك أَمْرُهُ.

---

(١) رواه البخاري (٦١١٧).

(٢) «الفتح» (١٠/ ٥٣٨) بتصرف.

قال بعض البلغاء: «الزم الصمت فإنه يُكْسِبُكَ صَفْوَ المحبة، ويُؤمِّنُكَ سُوْءَ المغبَّةِ[١] ويُلْبِسُكَ ثوب الوقار، ويكفيك مؤونة الاعتذارِ»[٢].

تلك بعض الأمور التي تعين على اكتساب الوقار حريٌّ بالمرء أن يروض نفسه عليها حتى تصير له سجية وطبعًا.

وممن اجتمعن له تلك الصفات كلها الإمام مالك بن أنس ـ رحمه الله ـ حتى قيل فيه:

يَدَعُ الجواب فلا يُرَاجِعُ هَيْبَةً
والسائِلونَ نواكِسُ الأذْقَانِ
نُورُ الوقارِ وعِزُّ سُلْطَانِ التُّقَى
فَهُوَ المَهِيبُ ولَيْسَ ذَا سُلطَانِ

---

(١) المغبة: العاقبة.

(٢) «أدب الدنيا والدين» (ص٢٧٥).

لزوم الحلم

الحلم للسمت كالسور الذي يحفظه من سَوْرَةِ الغضب؛ فإن سَوْرَةَ الغضب متى حلت في المرء رحل عنه كل جميل.

ومن أطاع هواه عند هيجان الغضب كان كمن خرج من التنور لتوه فأي سمت بقي له بعد هذا.

فالحلم كما عرفه الجرجاني: «هو الطُّمأنينةُ عند سَوْرَةِ الغضب»[١].

وقيل هو التأني والسكون عند غضب أو مكروه مع قدرة، وقوة وصفح وعقل»[٢].

ومن أسماء الله ـ سبحانه وتعالى ـ (الحليم)، وهو الذي لا يستخفه شيء من عصيان العباد، ولا يستفزه الغضب عليهم، ولكنه جعل لكل شيءٍ مقداراً فهو منتهٍ إليه»[٣].

---

(١) «التعريفات» (ص٩٢).

(٢) «المعجم الوسيط ـ مادة حلم» (١/ ١٩٤).

(١) «النهاية في غريب الحديث والأثر» لابن الأثير حرف الحاء مع اللام (١/ ٤٣٤).

والحلم من الخصال التي يحبها الله ـ سبحانه وتعالى ـ؛ فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال للأشج بن عبد القيس رضي الله عنه: «إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة»[(١)].

وقد بلغ رسول الله ﷺ في حلمه وعفوه الغاية؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة، حتى نظرت صفحة عاتق النبي ﷺ قد أثرت به حاشية الرداء من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد، مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ فضحك، ثُمَّ أمر له بعطاء»[(٢)].

وقال الحافظ: «وهذا من روائع حلمه ﷺ وكماله، وحسن خلقه، وصفحه الجميل، وصبره على الأذى في

---

(١) رواه مسلم (١٨).

(٢) البخاري (٥٨٠٩)، ومسلم (١٠٥٧).

النفس، والمال، والتجاوز على جفاء من يريد تألفه على الإسلام؛ وليتأسى به الدعاة إلى الله، والولاة بعده في حلمه، وخلقه الجميل من الصفح، والإغضاء، والصفو، والدفع بالتي هي أحسن»[١].

ومن هنا تعلم أن الحلم من أشرف الأخلاق فهو صفة من صفات الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأحب خصال الخير إليه لما فيه من حفظ السمت واكتساب الوقار واجتلاب الحمد؛ فمن كان حليمًا طبعًا ـ فليحمد الله ـ ومن لم يكن كذلك فليستعن بالله ثم ليأخذ برياضة نفسه وسياستها وحملها على الحلم، فإنما الحلم بالتحلم.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتَّحَلُّم، ومن يتحرَّ الخير يعطه، ومن يتوقَّ الشر يوقه**»[٢].

---

(١) «فتح الباري» (١٠/٥٠٦).

(٢) حسن: أخرجه ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١/٧٦)، و«الخطيب في تاريخه» (٩/١٢٧)، وقال الألباني في «الصحيحة» (٣٤٢)، حسن أو قريب من الحسن.

ومما يدل على أن الحلم بالتحلم؛ قول رسول الله ﷺ للأشج: «إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة»[(١)].

وفي رواية قال الأشج: يا رسول الله، أنا تخلقت بهما أم الله جبلني عليهما؟ قال: «بل الله جبلك عليهما»، قال: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله»[(٢)].

ومن دلالة الواقع أن حليم العرب الأحنف بن قيس ـ رحمه الله ـ قال: «لستُ بحَليمٍ ولكنني أتَحلَّم»[(٣)][(٤)].

---

(١) رواه مسلم (١٨).

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٥٢٢٥)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٤١٨٨).

(٣) قوله: «اتحلم»، أي: أنه تكلف الحلم وراض نفسه عليه حتى أصبح سجيةً له بل أصبح حليم العرب الذي يضرب به المثل في الحلم فيقال: «أحلم من الأحنف» قال أبو تمام يمدح المعتصم:

إقدامُ عمرٍو في سماحةِ حاتمٍ ... في حلمِ أحنفَ في ذكاءِ إياسِ

(٤) «الإحياء» (٣/ ١٧٩).

ولله در القائل:

لعمرك إن الحلم زينٌ لأهله
وما الحلم إلا عادةٌ وتحلُّمُ[1]

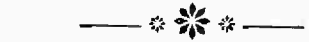

(١) «أقوال مأثورة» (ص ٤٠).

تجنب الغضب

الغضب يهدم الحلم وينافيه فمن قهر سَوْرَة غضبه بقوة حلمه فهو الشديد حقًا.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الشديد بالصُّرعة، إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب»[١].

وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ يطلب منه الوصية فأوصاه خير وصية بألا يغضب؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أوصني، قال: «لا تغضب»، فردَّدها مرارًا، قال: «لا تغضب»[٢].

فيا أخي عليك بوصية نبيك ﷺ فإن غبها لعظيم؛ فقد ضمن الله لمن أمسك عليه غضبه أن يخيره من الحور العين ما شاء؛ فعن معاذ بن أنس عن أبيه رضي الله عنه أنَّ رسول

---

(١) رواه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩).
(٢) رواه البخاري (٦١١٦).

الله ﷺ قال: «من كظم غَيْظًا وهُو قادرٌ على أن يُنفذَهُ دَعَاهُ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ على رُءوسِ الخلائق حتَّى يخيِّرهُ من الحور العين، يزوجه منها ما شاء»[1].

أخا الإسلام متى سَمَتْ بك نفسك إلى هذا الشرف العظيم فأمسك عليك غضبك ومتى عجزت فعليك بالعلاج وهو ما يأتي:

علاج الغضب:

١ ـ إذا وقع الغضب فعليك بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الأعراف: ٢٠٠).

وعن سليمان بن صُرَدٍ رضي الله عنه قال: استبَّ رجلان عند النبي ﷺ ونحن عنده جلوس وأحدهما يسب صاحبه

---

(١) حسن: أخرجه الترمذي (٢٠٢١)، وأبو داود (٤٧٧٧)، وابن ماجه (٤١٨٦)، وابن الأثير في «جامع الأصول» (٨/ ٤٤٣)، وحسنه الألباني في «المشكاة» (٥٠٨٨).

مغضبًا قد احمر وجهه، فقال النبي ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»[١][٢].

٢ - تغيير الحالة التي عليها الغضبان بالجلوس أو الخروج:

فإن الغضب يزول بتغيير الأحوال، والتنقل من حال إلى حال؛ فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال لنا: «إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع»[٣].

---

(١) قال ابن القيم - رحمه الله - في «الزاد» (٢/ ٤٦٢): «ولما كان الشيطان على نوعين: نوع يُرى عيانًا، وهو شيطان الإنس، ونوع لا يُرى، وهو شيطان الجن، جعل الله - سبحانه وتعالى - المخرج من شر شيطان الإنس بالإعراض عنه، والصفح، والدفع بالتي هي أحسن، ومن شر شيطان الجن بالاستعاذة منه وما أحسن ما قاله القائل:

فما هو إلا الاستعاذة ضارعًا ■■■ أو الدفع بالحسنى هما خيرُ مطلوبِ
فهذا دواء الداء من شر ما يُرى ■■■ وذاك دواد الداء من شر محجوبِ

(٢) رواه البخاري (٦١١٥)، ومسلم (٢٦١٠).

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٧٨٢)، وصححه الألباني في «المشكاة» (٥١١٤).

٣ ـ السكوت؛ وذلك أن اللسان أداة مجردة يتغالب عليه الغضب؛ فالسكوت في هذه الحالة أحمد عاقبة والسلامة لا يعدلها شيء، وإلى ذلك أرشد النبي ﷺ؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «علِّموا، ويسِّرُوا ولا تُعَسِّروا، وإذا غضب أحدكم فليَسْكُتْ»[1].

٤ ـ ينبغي استحضار ما ورد في فضل كظم الغيظ من الثواب، وما ورد في عاقبة الغضب من الخذلان في العاجل والآجل؛ فعن معاذ بن أنس عن أبيه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من كظم غيظًا وهُوَ قادرٌ على أن ينفذَهُ دَعَاهُ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على رُءوسِ الخلائق حتَّى يخيِّرهُ من الحور العين، يزوجه منها ما شاء»[2].

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٢٤٥)، وقال الألباني في «الصحيحة» (١٣٧٥): صحيح لغيره.

(٢) حسن: أخرجه الترمذي (٢٠٢١)، وحسنه الألباني في «المشكاة» (٥٠٨٨).

تلك بعض الأمور التي تعينك على كظم غيظك والتغلب على سَوْرَةِ غضبك، وأنت خليق أن تحبب لنفسك الحلم حتَّى تلزمه وتألفه ويكون هو لذَّتك وسلوتك فإنه ـ لعمري ـ نِعْم الحلية لك ومن أجل نَفَاسَتِه تَسَمَّى الله بِهِ.

تجنب الحديث مع أخيك إذا غضب:

أخي أزيدك فائدة: يجب عليك أن تسكتَ إذا غَضِبَ أخوك حتَّى تهدأ سورة الغضب لديه وتبرد المشاعر وتسكنَ اضطرابات النفس، ويتأكد ذلك منك إذا اشتد به الغضب، فإنك متى فعلت ذلك اكتسبت فضيلة الصبر والحمد معًا.

وإن واجهتَهُ وهو بهذه الحالة كنت كعاقل واجه مجنونًا، ولا تأمن من إظهار الجُرأة عليك، ومن درر العلامة ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ قوله: «متى رأيت صاحبك قد غضب وأخذ يتكلم بما لا يصلح، فلا ينبغي أن تعقد على ما يقوله خنصرًا، ولا أن تؤاخذه به، فإن حاله حال السكران، لا يدرك ما يجري، بل اصبر لفورته، ولا تعول عليها، فإن الشيطان قد غلبه، والطبع قد هاج، والعقل قد استتر.

ومتى أخذت في نفسك عليه، أو أجبته بمقتضى فعله كنت كعاقل واجه مجنونًا، أو كمفيق عاتب مغمى عليه، فالذنب لك، بل انظر إليه بعين الرحمة، وتلمح تصريف القدر له، وتفرج في لعب الطبع به واعلم أنه إذا انتبه ندم على ما جرى، وعرف لك فضل الصبر.

وأقل الأقسام أن تسلمه فيما يفعل في غضبه إلى ما يستريح به، وهذه الحالة ينبغي أن يتحملها الولد عند غضب الوالد، والزوجة عند غضب الزوج، فتتركه يشتفي بما يقول، ولا تعول على ذلك، فسيعود نادمًا معتذرًا، ومتى قوبل على حالته ومقالته صارت العداوة متمكنة، وجازى في الإفاقة على ما فعل في حقه وقت السكر.

وأكثر الناس على غير هذه الطريق، ومتى رأوا غضبانًا قابلوه بما يقول ويعمل على مقتضى الحكمة، هذا، بل الحكمة ما ذكرته، وما يعقلها إلا العالمون»[1].

---

(١) «صيد الخاطر» لابن الجوزي (ص٢٢١).

التواضع

التواضع للسمت الحسن كالشمس للدنيا والماء للحياة، فهو زينة العيون والقلوب وحيلة لا تبلى محاسنها، فلا تزداد مع الأيام إلا حسنًا وجمالاً.

ويعرف التواضع بأنه بذل الاحترام والعطف والمجاملة لمن يستحق ذلك[١]، وهو بمنزلة بين منزلتين: الكبر والذل[٢].

قال ابن قدامة ـ رحمه الله ـ: «اعلم أن التواضع كسائر الأخلاق، له طرفان ووسط فطرفه الذي يميل إلى الزيادة يسمى تكبرًا، وطرفه الذي يميل إلى النقصان يسمى تخسسًا ومذلة، والوسط يسمى تواضعًا ـ وهو المحمود ـ وهو أن يتواضع من غير مذلة»[٣].

---

(١) انظر «رسائل الإصلاح» ١٠/ ١٢٧).

(٢) الذُّلُّ: هو الدَّنَاءَةُ والخَسَّةُ وبَذْلُ النَّفْسِ أَوْ ابتذَالُهَا في نيل مآربها وشهواتها، كتواضع السَّفَلِ في نيل مآربهم وتواضع كل مصلحة لمن يرجُو نيل مصلحته منه، فهذا كله ضِعَةٌ لا تواضع.

(٣) رواه مسلم (٤٦٦٠).

والتواضع سبيل إلى الرفعة في الدنيا والآخرة؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما زاد اللهُ عبداً بعفوٍ إلاَّ عزًا، وما تواضع أحدٌ للهِ إلاَّ رَفَعَهُ اللهُ»[1].

قال النووي ـ رحمه الله ـ: في شرحه لهذا الحديث: «وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه»؛ فيه وجهان:

أحدهما ـ يرفعه الله في الدنيا، ويُثبت له بتواضعه في القلوب منزلةً ويرفعه الله عند الناس، ويُجِلُّ مكانه.

والثاني ـ أن المراد ثوابه في الآخرة، ورفعه بتواضعه في الدنيا».

وقال ابن الحاج ـ رحمه الله ـ: «من أراد الرِّفعة فليتواضع لله ـ سبحانه وتعالى ـ؛ فإن العِزَّة لا تقع إلا بقدر النُّزول، ألا ترى أن الماء لَمَّا نزل إلى أصل الشجرة، صعد إلى أعلاها، فكأن سائلاً سأله: ما صعد بك هنا ـ أعني في رأس الشجرة ـ وأنت تحت أصلها؟!

---

(١) «شرح النووي على مسلم» (٦/ ١٤٢).

فكأن لسان حاله يقول: مَنْ تواضع لله رَفَعَهُ»[1].

ومن جميل ما قيل في التواضع:

دَنَوْتَ تَواضُعًا، وَعَلَوْتَ مَجْدًا
فَشَأْنَاكَ انْخِفَاضٌ وارْتِفَاعُ
كَذَاكَ الشَّمْسُ تَبْعُدُ أنْ تُسَامَى
وَيَدْنُو الضَّوْءُ مِنْهَا والشُّعَاعُ

قلت: إذا كان الله قد رفعك بتواضعك فمن سيضعك وقد تقدم أن التواضع هو الاحترام والعطف والمجاملة لمن يستحق فاحترس ممَّن لا يستحق وخُذْ نفسك بذلكَ مُمْسيًا ومصبحًا.

قال ابن المقفع ـ رحمه الله ـ: «إن استطعت أنْ تضع نفسك دونَ غايتك في كل مجلسٍ ومُقامٍ ورأي وفعلٍ، فافعل، فإنَّ رفع الناس إياك فَوْقَ المنزلة التي تَحُط إليها

(١) «المدخل» لابن الحاج (٢/١٢٢).

نفسك، وتقريبهم إياك إلى المجلس الذي تباعدت منه، وتعظيمهم من أمرك ما لم تُعظِّم، وتزيينهم من كلامك ورأيك وفعلك ما لم تزيّن هو الجمال»[١].

تَوَاضَعْ تَكُنْ كالنَّجْمِ لاَحَ[٢] لِنَاظِرٍ
عَلَى صفحاتِ الماءِ، وهْوَ رَفِيعُ

ولا تَكُ كالدُّخانِ يَعْلُو بِنَفْسِهِ
إلى طبقاتِ الجَوِّ، وهْوَ وَضِيعُ

(١) «الأدب الصغير والأدب الكبير» لابن المقفع (١١٨، ١١٩).
(٢) لاح: بدا وظهر.

لزوم الآداب

من رام السمت الحسن فعليه لزوم الآداب مع الخلق ومعاملتهم على اختلاف مراتبهم بما يليق بهم، فلكل مرتبةٍ أدبٌ، والمراتب فيها أدبٌ خاصٌ فمع الوالدين: أدب خاص للأب، منهما أدبٌ هو أخص به، ومع العالم أدب آخر ومع السلطان أدب يليق به وله، ومع الأقران أدب يليق بهم، ومع الأجانب أدب غير أدبه مع أصحابه وذوي أُنْسِه، ومع الضيف أدب غير أدبه، ولكل حالٍ أدبٌ، فللأكل آداب، وللشراب آداب، وللركوب والدخول والخروج والسفر والإقامة والنوم آداب، وللتَّبَتُّل آداب، وللكلام آداب وللسُّكون والاستماع آداب.

وأدب المرء عنوان سعادته وفلاحِهِ، وقِلَّةُ أدبه عنوان شقاوته وبواره.

فما استُجلب خير الدنيا والآخرة بمثل الأدب، وما استُجلب حرمانها بمثل قِلَّةِ الأدب، فانظر إلى الأدب مع

الوالدين، كيف نجيَ صاحبه من حبسِ الغار حين أطبقت عليهم الصَّخْرَةُ؟

والإخلال به مع الأُم ـ تأويلاً وإقبالاً ـ على الصلاة كيف امتُحِنَ صاحِبُهُ بِهَدْمِ صومَعَتِهِ وضرب الناس له ورَمْيِهِ بالفاحشة»[1].

كيف نكتسب الآداب:

حسن الآداب هو مقام الاقتداء برسول الله ﷺ فهو القدوة في كل خير؛ فقد جمع الله ـ سبحانه وتعالى ـ فيه أشتات الفضائل والآداب، وأبعده عن كل ما يعاب، وأمرنا بالاتِّساء به في قوله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ (الأحزاب: ٢١).

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/٤٠٦، ٤٠٨) بتصرف، انظر «نضرة النعيم» (٢/١٤٩).